

الفصل الخامس

الإمام الغزالي والفلسفة

obeikandi.com

قال الإمام الغزالي عن الفلاسفة :

رأيتهم أصنافاً ، ورأيت علومهم أقساماً ، وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد ، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين ، وبين الأواخر منهم والأوائل تفاوتٌ عظيم في البعد عن الحق ، والقرب منه .

اعلم : أنهم - على كثرة فرقتهم ، واختلاف مذاهبهم - ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

- الدهريون .

- والطبيعيون .

- والإلهيون .

الصف الأول : الدهريون ، وهم طائفة من الأقدمين ، جحدوا الصانع المدبر العالم القادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً - وهؤلاء هم الزنادقة .

والصف الثاني : الطبيعيون ، وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات .

وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات ؛ فأروا فيها من عجائب صنع الله تعالى ، وبدائع حكمته ، ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم

مُطَّلَع على غايات الأمور ومقاصدها . ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع، إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان ، لا سيما بنية الإنسان .

إلا أن هؤلاء - لكثرة بحثهم عن الطبيعة - ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قِوام قوى الحيوان به ، فظنوا أن القوة الفاعلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً ، وأنها تبطل ببطالان مزاجه فينعدم ثم إذا انعدم فلا يُعقل إعادة المعدوم ، كما زعموا ، فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود : فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار ، والحشر ، والنشر ، والقيامة ، والحساب ، فلم يبقَ عندهم للطاعة ثواب ولا للمعصية عقاب ، فانحلَّ عنهم اللجام ، وانهمكوا في الشهوات انهماك الأنعام .

وهؤلاء أيضاً زنادقة ؛ لأن أصل الإيمان هو : الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .

والصنف الثالث : الإلهيون ، وهم المتأخرون منهم ، مثل « سقراط » وهو أستاذ « أفلاطون » ، و « أفلاطون » وهو أستاذ « أرسطاطاليس » .

و « أرسطاطاليس » هو الذى رتب لهم المنطق ، وهذب لهم العلوم ، وحرر لهم ما لم يكن محرراً من قبل ، وأنضج لهم ما كان فجاً من علومهم .

وهم - بجملتهم - ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية ، والطبيعية ، وأوردوا فى الكشف عن فضائحتهم ما أغنوا به غيرهم ، وكفى الله المؤمنين القتال بتقاتلهم .

ثم رد « أرسطاطاليس » على « أفلاطون » و « سقراط » ومن كان قبله من الإلهيين ، ردّاً لم يقصّر فيه حتى تبرأ منهم جميعهم ، إلا أنه استبقى أيضاً من رذائل كفرهم وبدعتهم ، بقايا لم يوفق للنزوع عنها ، فوجب تكفيرهم ، وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين (كابن سينا والفارابى وأمثالهما) .

على أنه لم يقم بنقل علم « أرسطاطاليس » أحد من متفلسفة الإسلاميين

كقيام هذين الرجلين ، وما نقله غيرهما ليس يخلو من تحييط وتخليط ، يتشوش فيه قلب المطالع ، حتى لا يُفهم . وما لا يُفهم : كيف يُردُّ أو يُقبل ؟ .. ومجموع ما صَحَّ عندنا من فلسفة أرسطاطاليس - بحسب نقل هذين الرجلين - ينحصر في ثلاثة أقسام :

١ - قسم يجب التكفير به .

٢ - قسم يجب التبديع به .

٣ - قسم لا يجب إنكاره أصلاً ، فلنفضِّله .

ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديعهم في سبعة عشر .. ولإبطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين صَنَّفنا كتاب «التهافت» .

أما المسائل الثلاث فقد خالفوا فيها كافة المسلمين ، وذلك في قولهم :

١ - إن الأجساد لا تُحسَّر ، وإنما المُثاب والمُعاقب هي الأرواح المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية .

ولقد صدقوا في إثبات الروحية ، فإنها كائنة أيضاً ، ولكن كذبوا في إنكار الجسمانية ، وكفروا بالشرعة فيما نطقوا به .

٢ - ومن ذلك قولهم إن الله (سبحانه وتعالى) يعلم الكلليات دون الجزئيات . وهذا أيضاً كفر صريح ، بل الحق أنه ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ (١) .

٣ - ومن ذلك قولهم يَقْدَمُ العالم وأزليته ؛ فلم يذهب أحد من المسلمين إلى شيء من هذه المسائل .

وأما ما وراء ذلك : من نفْيهم الصفات ، وقولهم إنه عليم بالذات لا بعلم زائد على الذات ، وما يجري مجراه ، فمذهبهم فيها قريب من مذهب «المعتزلة» .

* * *

(١) سورة سبأ : ٣ .

وقد يتساءل إنسان : إذا كان الأمر كذلك فَلِمَ انتشرت العلوم الفلسفية في العالم الإسلامي ؟

يقول في ذلك الحافظ عماد الدين ابن كثير في تاريخه ، سنة ٦٨٧ هـ : « بعد أخذ التتار بغداد عمل الخواجه نصير الطوسي الرصد ، وعمل دار حكمة فيها فلاسفة لكل واحد في اليوم ثلاثة دراهم ، ودار طب فيها للحكيم درهمان ، وصرف لأهل دار الحديث لكل محدّث نصف درهم في اليوم ؛ ومن ثم فشا الاشتغال بالعلوم الفلسفية وظهر » .

* * *

والفلسفة التي نعنيها هنا ، إنها هي المحاولات المستمرة التي بدأت منذ العهد اليوناني القديم ولا تزال - لبناء « ما وراء الطبيعة » على العقل ، إنها هي المحاولات العقلية لاختراع ما وراء الطبيعة وابتداعه ، بحيث يأخذ العقل حريته في الإثبات والنفي ، غير متأثر إلا بمقاييسه هو التي يفرضها . وإذا كان العقل قد اشتغل بالطبيعة والرياضيات ، وإذا كانت الطبيعيات والرياضيات قد أدخلت في الفلسفة كأجزاء لها فإن الهدف الأول للإمام الغزالي إنما هو جانب ما وراء الطبيعة .

ومما لا شك فيه أن العقل قد أنتج ثماراً يانعة في الطبيعيات والرياضيات ، لقد أقام القواعد المحكمة ونظّم المبادئ المتقنة وانتهى به الأمر إلى أن شيّد الطبيعيات والرياضيات على أسس متينة : وكان الأمر كذلك في هذين الميدانين لأن العقل يعمل في دائرة اختصاصه ، ودائرة اختصاصه إنما هي الماديات والمحسوسات ، أو ما يتمثل فيهما حينما يوجد خارج الذهن كالرياضيات .

وغرّ هذا النجاح قوماً ، فاعتقدوا أن في استطاعة العقل أن يجول في كل ميدان : في استطاعته أن يجول في الطبيعة وفي ما وراء الطبيعة ، في العالم وفي ما وراء العالم ، في المادة والمجرّدات ، في عالم الشهادة وفي عالم الغيب ؛ وكانت

النتيجة أن أقحموا العقل في عالم ما وراء الطبيعة ؛ فكانت الفلسفة الإلهية العقلية ، وكان الإخفاق التام للعقل في هذا الميدان .

وهذه الفلسفة العقلية التي تبحث في الغيب ، إنها هي انحراف عن الطريق المستقيم ، وهذا الانحراف حديث العهد نسبياً ؛ فهو يبتدئ كما قلنا بالعهد اليوناني ، وأشهر مَنْ تَوَلَّى كِبْرَهُ في ذلك العهد إنها هو « أرسطو » .

وأرسطو هذا الذي يعتبره بعض المؤرخين أكبر عقلية فلسفية ظهرت في التاريخ ، هو أيضاً أشهر الذين انهار مذهبهم في عالم ما وراء الطبيعة ، وكان إخفاق عقله الكبير هنا فيما يختص بمعرفته الغيب من أوضح الأدلة على أن عالم الغيب أسمى من أن يتناوله العقل البشري الخَطَأ .

ولقد كانت الاعتراضات على مذهبه قوية عامة شاملة حتى إن تلاميذه وهم فلاسفة دَبَّ اليأس في نفوسهم من إقامة عالم ما وراء الطبيعة على أساس العقل فلم يمكنهم أن يردوا على الاعتراضات ورأوا أنه إذا كان أستاذهم قد أخفق هذا الإخفاق في مذهبه عن عالم الغيب فإنهم سيخفقون من باب أولى لو حاولوا إقامة مذهب في الإلهيات جديد . يقول الأستاذ « سانتلانا » بعد أن ذكر الاعتراضات على مذهب أرسطو :

« إن ذلك حمل التلامذة بعد موته على الإيلاس من الإلهيات والتفرُّغ إلى علم الطبيعة ، وعلم الأخلاق ، اختصوا بها في القرن الثالث قبل الميلاد، حتى لُقِّبوا بالطبيعيين سِيَّما شيعة «ثاوقرسطيس» و«استوثون» اللذين خَلَفَا أرسطو في رئاسة «دار العلم» التي كانت للمشائين بأثينا » اهـ...

انصرف - إذن - تلاميذ أرسطو - يائسين - عن عالم ما وراء الطبيعة إلى عالم الطبيعة والأخلاق ، وإذا كان مذهب زعيم العقلين قد انهار ، فمن باب أولى أن ينهار مذهب غيره ممن هم أقل منه ، ولكن هذا الانهيار المتتابع للمذاهب العقلية في الإلهيات لم يصرف الناس عن هذا النمط من المحاولات ، التي مآلها دائماً : الإخفاق .

وتتابعت هذه المحاولات في الشرق والغرب إلى عهد الإمام الغزالي .. ورأى الإمام الغزالي - ببصيرته النفاذة وبحدسه الملهم - أن هذا الطريق الذي انحرفت إليه الفلسفة وسارت فيه إنما هو طريق مسدود ، ولا بد - إذن - من محاربة هذا العبث الذي يسمونه « الفلسفة العقلية » ، لا بد من محاربته لأسباب عدة ، فهو إضاعة للوقت ، وهو تشكيك للبشرية ، وزعزعة للإيمان ، وليس له من نتيجة إلا التفرُّق والاختلاف ، وتوهين المقدَّسات .

على أنه إذا كان يلتبس لليونان العذر في معالجة هذا الموضوع ، لعدم وجود الوحي المعصوم ، الذي يهديهم الطريق ، وينير لهم الجادة ، فليس هناك من عذر للمسلمين وبين أيديهم رسالة السماء ممثلة في « القرآن » ..

وهو ﴿ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (١) .

﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٢) .

وقد تكفل الله بحفظه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٣) .

ليس للمسلم ، إذن - فيما يرى الإمام الغزالي - أن يحاول ابتداع عالم ما وراء الطبيعة ، أو اختراعه عقلياً ، ولكن المسلمين أخذوا فيما أخذ فيه اليونان واعتمدوا على العقل وألقوا قيادهم إليه ؛ فتفرقوا مذاهب شتى وطرائق قدداً ، وأصبح للفلسفة - برغم هذا - بريق يخطف الأبصار ، ولمعان كالسراب يجذب الكثيرين .

لابد - إذن - من التشمير عن ساعد الجد ، وهدم هذا الزيف ، وإبطال هذا السحر ؛ حتى يعود الناس إلى الاعتصام بحبل الله وعدم التفرُّق .

وحمل الإمام الغزالي على الأساس الذي تقوم عليه الفلسفة وهو « العقل »

(١) سورة هود : ١ .

(٢) سورة فصلت : ٤٢ .

(٣) سورة الحجر : ٩ .

حملة عنيفة وهجم عليه هجوماً قوياً ، ولم يفتّر قطُّ عن مهاجمته منذ أن ألّف كتابه القيم «تهافت الفلاسفة» إلى أن انتهت به الحياة ، ولقد كان كتابه «تهافت الفلاسفة» محاولة موفقة كل التوفيق ، جريئة كل الجرأة ، طريفة كل الطرافة ، وما كان المقصد الأول والهدف الأساسى لهجومه هدم الآراء فى نفسها ، فبعضها صحيح ، موافق للدين ، ومع ذلك فقد هدم الإمام الغزالى المنهج العقلى ، الذى استندت إليه هذه الآراء ، فـ «خلود النفس» مثلاً رأى يقول به الغزالى ، ويقول به الفلاسفة ، ولكن الإمام الغزالى حمل معوله على طريقة الفلاسفة فى إثبات خلود النفس ، وهدم أدلتهم ، وضرب بمعوله فيها فانهارت وتهافتت ، ومع ذلك فقد كان هو مؤمناً بهذا الخلود ، إنه لم يلتزم فى هذا الكتاب إلا تكدير مذهبهم ، والتعبير فى وجه أدلتهم بما يبيّن تهافتهم .

ومقصوده : تنبيه مَنْ حَسَنَ اعتقاده فى الفلاسفة ، وظن أن مسالكهم نقية من التناقض ، ببيان وجوه تهافتهم .

ويقول : أنا لا أدخل فى الاعتراض عليهم ، إلا دخولَ مُطالبٍ مُنكِرٍ ، لا دخولَ مُدَّعٍ مُثَبِّتٍ ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه ، متطوعاً بالزمامات المختلفة : فالزهم - تارةً - : مذهب المعتزلة .

وأخرى : مذهب الكرامية .

وطوراً : مذهب الوقفية .

ولا أنهض ذاباً عن مذهب مخصوص .

ويقول الأستاذ «بلاسيوس» بحق : « إن الغزالى حينما سَمَّى كتابه (تهافت الفلاسفة) كان يريد أن يمثل لنا أن العقل الإنسانى يبحث عن الحقيقة ويريد الوصول إليها كما يبحث البعوض عن ضوء النهار ، فإذا أبصر شعاعاً يشبه نور الحقيقة انخدع به ، فرمى بنفسه عليه ، وتهافت فيه ، ولكنه يخطئ مخدوعاً بأقيسة منطقية خاطئة ؛ فيهلك كما يهلك البعوض .

فكأن الغزالي يريد أن يقول : إن الفلاسفة خُدعوا بأشياء أسرعوا إليها بلا إعمال روية ؛ فتهافتوا وهلكوا الهلاك الأبدي « اهـ.

وفي كتاب «التهافت» هدم الإمام الغزالي عقلياً ما بناه الفلاسفة معتمدين على عقولهم وتهافت الآراء تحت قلمه ، ومن الحق أن نقول : إن أدلة الإمام الغزالي فيها من القوة ومن الرسوخ بحيث لا تقل -من وجهة النظر العقلية - عن أدلة الفلاسفة العقليين .

وما من شك في أن حملة الإمام الغزالي ، إنما كانت موجّهة أولاً وبالذات إلى العقل ، والقضية المتنازع عليها هي قضية استطاعة العقل الوصول إلى المعرفة اليقينية في عالم « ما وراء الطبيعة ». الإمام الغزالي ينكر ، ويثبت إنكاره بالإخفاق المتتابع للفلاسفة ، ويثبت أيضاً بهدم العقل لكل ما بناه العقل نفسه في هذا الميدان.

التعارض - إذن - بين الإمام الغزالي والفلاسفة إنما هو تعارضٌ كليٌّ ؛ ولذلك فإن المحاولات الكثيرة المتعددة لتصحيح آراء الفلاسفة ، أو لتصحيح بعضها ، ونقد الإمام الغزالي في حملته على هذا الرأي أو ذاك ، والانتصار لوجهة النظر الفلسفية في هذه أو تلك . . إن ذلك كله غير مُجْدٍ في القضية التي أثارها الإمام الغزالي ، وهي محاولات جهل القائلون بها موضوع النزاع على حقيقته أو تجاهلوه .

ومن هنا كانت محاولة « ابن رشد » - وهو أكبر المدافعين عن الفلاسفة - تصويب آراء الفلاسفة في كتابه «تهافت التهافت» عملاً غير مفيد في حسم النزاع ؛ إذ إن دائرة النزاع الحقيقية إنما هي الأساس الذي بُنيت عليه الآراء وليست الآراء نفسها . والواقع أن فكرة الإمام الغزالي لا تزال - حتى الآن - تتسم بالسهولة والوضوح والقوة : لقد أخفقت أيها العقليون .. والدليل على إخفاقكم اختلافكم المستمر ، هذا الاختلاف الذي أصبح وكأنه القاعدة والمبدأ العام .

وإذا أردنا في النهاية تقدير مدى الآثار التي كانت ولا تزال ثمرة لفكرة الإمام الغزالي هذه فإن خير ما نفعل فيما يتعلق بذلك ، وخير ما نختم به هذه

الكلمة هو أن ننقل رأى الدكتور « محمد إقبال » وهو رأى يتسم بالرصانة والعمق .. يقول « محمد إقبال » فى كتابه « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام » :

« على أنه لا سبيل إلى إنكار أن الدعوة التى نهض لها الغزالى تكاد تكون دعوة للتبشير بمبدأ جديد ، مثلها فى ذلك مثل الدعوة التى قام بها « كانت » فى ألمانيا فى القرن الثالث عشر (الميلادى) .

ففى ألمانيا ظهر المذهب العقلى لأول عهده حليفاً للدين ، ولكن سرعان ما تبين أن جانب العقيدة من الدين لا يمكن البرهنة عليه حسيًا ؛ فكان الطريق الوحيد -إذن- : أن تُمَحَى العقيدة الدينية من سجل المقدسات .

وقد جاء مع محو العقيدة مذهب المنفعة فى فلسفة الأخلاق ؛ ولذا مكّن المذهب العقلى من سيادة الإلحاد .

تلك كانت الحال فى ألمانيا عندما ظهر « كانت » ، وكشف كتابه « العقل الخالص » عن قصور العقل الإنسانى ، فهدم بذلك ما بناه أصحاب المذهب العقلى من قبل ، وصدق عليه القول بأنه كان أَجَلَ نَعَمِ الله على وطنه .

وإن التشكك الفلسفى الذى اصطنعه الغزالى -على تطرفه بعض الشيء- قد انتهى إلى النتيجة نفسها فى العالم الإسلامى إذ قضى ذلك على المذهب العقلى الذى كان موضع الزهو ، على الرغم من ضحالته ، وهو المذهب الذى سار - فى نفس الاتجاه إليه - المذهب العقلى فى ألمانيا قبل ظهور « كانت » .

غير أن هناك فارقاً مهماً بين « الغزالى » و « كانت » ؛ فإن « كانت » تَمَاشَى مع مبادئه تماشياً لم يستطع أن يثبت أن معرفة الله ممكنة .

أما الغزالى فعندما خاب رجاءه فى الفكر التحليلى ؛ ولّى وجهه شطر الرياضة الصوفية ؛ وألقى فيها مكاناً للدين قائماً بنفسه .

وبهذه الطريقة وُفّق الغزالى لأن يجعل للدين حق الوجود مستقلاً عن العلم ، وعن الفلسفة الميتافيزيقية .

* * *